

كيف نتحرر من غرائز الشر ؟

بقلم الكاتبة زيلب محمد حسين

يخيل إلينا أحيانا أن غرائز الشر من الصفات الكامنة في طبيعة الحيوان دون الإنسان ، ومع ذلك إذا أمكننا أن نغلو لأنفسنا في وقت ما كي نحاسبها على نزواتها أمام العقل والواقع أدركنا بغير حياء مدى نزوع كل منا إلى غريزة خاصة في ناحية خاصة من الحياة ، تسمى إلى الإنسانية بقدر ما تسمى إلى الشخص نفسه ، فتظهر عند البعض كفتائن دائمة يسببها ضعف التهذيب الخلقى الذى يخط بالإنسان فيمود به إلى عهد الممجية والنوحش ، وتستتر عند البعض الآخر من صقلتهم المعرفة وسمت بأرواحهم وراء أقنعة من المظاهر والتقاليد .

وقد أجمعت الظواهر على أن الإنسان ولد ومعه غريزة الشر ، فنحن نرى الطفل الصغير يلهو بلعبته التى يحبها وهو مسرور بها ثم لا يلبث أن يعطسها بحركة غريزية لاشعورية ، ونراه أيضا يداعب قططه الجميلة ، فإذا به يحاول أن يخنقها بيديه الصغيرتين . وفي هذين المثلين على بساطتهما ما يدلنا على وجود غريزة الهدم عند الأطفال بالفطرة .

ومهما اختلف العلماء فى أصل غريزة الشر وهل هى موجودة فى الإنسان منذ وجوده أو حادثة عليه تتأصل فيه من الحياة المادية ، ولا تجد من يبعدها عنه أو يجترها منه ، فقد اتفقوا ضمنا على أن هناك أناسا يخضعون لغرائز الشر فى حياتهم ، كما أثبت الطب الحديث أن فى الإنسان غدة تسمى (الغدة الادريينالية) أو فوق الكلى أو الغدة التاجية . وهذه الغدة تفرز فى حالة الغضب مادة تسمى (الادريينالين) فتنشط الدم وتحفز الشخص وتكسبه قوة أكثر من قوته العادية .

وفى نفس الوقت تكبر وتنمو ومع نموها يصبح الإنسان أكثر استعدادا للغضب ، فيزيد أكل الأشياء وأنفها ، وتتخذ هذه الحالة شكلا إجراميا لمن كان ضعيف الإرادة فيصبح شريرا ومن هنا ينشأ الاجرام .

وغرائز الشر كثيرة متعددة ، منها المحدودة الضرر التي تعود نتائجها غالبا على الفرد نفسه ، ومنها الماحدودة التي تتمدى الفرد الى المجموع حيث يصير خطرها عظيما ، ونتائجها مخيفة .

فالتشاؤم ، والجن ، والياس ، والنجل ، والغضب ، والافئاس في الملمات من الغرائز المحدودة الضرر .

وغريزة التشاؤم ضعف خلقى يتولد عادة في النفس اثر صدمات متلاحقة تصيب شخصا ضعيف الارادة فتحطم روحه وترزعزع عقائده .

وهذه الغريزة اذا اصابته أمة عجزت عن الرقى ، ولم تتقدم خطوة في مضمار الحضارة . ومن المصلحين قوم ينصبون أنفسهم دعاة للإصلاح وفي الوقت نفسه يسرفون في التشاؤم اسرافا عجيبا يقطع معه كل أمل في الإصلاح والتقدم . واذا سرت هذه الروح في جسم الأمة شبطت عزائم أبنائها وقعدت بهم عن السعى في سبل التقدم ، وفقدوا الأمل نقدا لا يترك معه متنفسا للرقى ، فيؤدى هذا حتما الى انكارهم حقائق الحياة والى سيطرة الأوهام الفاسدة عليهم ، ويطشأ عن هذا الخوف والجن .

وغريزة الجن نتيجة حتمية لغريزة التشاؤم ، فالمتشاؤم الذى كست الأوهام أفكاره بسوا دألوانها لا يمكن مطلقا أن يقدم على مواجهة صعاب الحياة بنفس فرحة مطمئنة ، ولذلك يقف حين يجب عليه أن يتقدم ، ويبطئ حين يجب عليه أن يسرع ، تهزه أقل الحركات ، وتنقص عيشه أبسط العقبات . ورب لحظة تردد قد تضع عليه فرصة ذهبية ربما كان لها اثر كبير في بناء مستقبله ، وتكوين حياته كفرد ناجح في الحياة .

كذلك اليأس فهو صاحب للجن والتشاؤم ، فمن تشاءم من شىء وجبن عن واجبه تولدت في نفسه عوامل اليأس من الحياة ومن احتمال مشقاتها والنضال في سبيل العيش ، فتخور عزيمته ويؤثر أن يتخلص من حياته بالانتحار ، ويفقده تفقد الأمة عضوا كان يمكنه بالقليل من الروية والتبصر أن يساهم في رقيها وصلاحها .

أما النجل فهو غريزة تتولد مع الطفل في طوره الأول عند ما يجاهر بأفكاره الساذجة المحدودة فيصدم فيها من أهله وأقاربه الذين يظنون أن التربية معناها جهل الطفل بكل ما يحيطه حتى يبلغ بهم الأمر الى إيدائه ، فيعبد عن إبداء آرائه خشية أن يصطدم فيها ، ويعود على ذلك حتى تقوى فيه غريزة النجل وتحل في نفسه محلا يؤثر في أكثر الأحيان على حياته العملية .

وقد علمت أن كاتبها كبيرا مشهورا بالجل قد بلغ به ذلك الجبل مبلغا لم يمكنه ذات مرة من مخاطبة الجمهور خمس دقائق من وراء المذياع إلا وكان يتصبب عرقا ويرتعد رعبا وخوفا ، وهذا القصر سببه ولا شك التسوة التي عاناها إبان تربيته .

أما غريزة الغضب فهي غريزة تشترك مع الغرائز المحدودة وغير المحدودة الضرر ، فقد تكون قاصرة على الشخص نفسه فلا تمتد الى غيره ، وقد تحمل على ارتكاب الجرائم والانتقام وإزاء الغليل وقديما قالوا : ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب .

وغريزة الغضب كغريزة الخوف يثيرها حدوث أمر غير منتظر لا علاقة له بالميلول ولا صلة بينه وبين المعاني التي تفرغ لها الذهن ، ويخالفها في أن الخوف يحمل المرء على الفرار ، أما الغضب فيفضي به الى التحرش والهجوم .

ولا شك أن الغدة الادريناالية التي عناها الطب في تحديد أسباب غرائز الشر لا تؤدي مهمتها إلا ساعة الغضب ، وهي كما قلنا تعطى الجسم قوة تحفزه للفتك كالوحش الكاسر ساعة الاقتراس .

وقد شبه بعضهم الغضب بالافعى ذات الممس اللين إذا بطشت غدرت ، وكالقوة الفاشمة إذا حكمت بظلمت ، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم على من استوصاه بنصيحته الثمينة فقال له : لا تنضب .

ومما قرأته عن الإمام على كرم الله وجهه أنه كان يحارب في إحدى المواقع وكان أحد الكفار قد أذى النبي (صلى الله عليه وسلم) وكان يسفّه دعوته ، وينال من رسالته ، فوقع في تلك الحرب تحت يد على بن أبي طالب فطرحه أرضا وكاد يقضى عليه أولا أن الرجل بصق في وجه الإمام على ، فقام الامام عنه وخلي سبيله . فسئل : لم عفوت عن عدو الله لا سيما وقد بصق في وجهك؟ فقال : "خفت إن قتلته أن يقال عني إني قتلته بعد أن أغضبني وتفل في وجهي ، ولا يقال إني قتلته جهادا في سبيل الله" . . . ولكن كم فينا من هم مثل ابن أبي طالب رحمه الله يمكنهم أن يتسامحوا في حقوقهم والاعتداء عليهم ومقابلة الإساءة بالإحسان ؟

ومما أن الكلام عن الغضب قد ساقنا حتما إلى الغرائز غير المحدودة الضرر فسنتكلم عن باقي تلك الغرائز وهي حب النفس والسرقة والقتل وروح الهدم .

فغريزة حب النفس أو الأثرة غريزة خطيرة تقود صاحبها حتما إلى الاجرام ، فقد تعود أن يرى الأشياء مملوكة له ولذلك فهو يريد دائما أن يحصل على كل ما يطلب ويشتهي ،

ولن نقف في مسيله أى عقبة ما دامت روحه الجشعة قد تشبعت بشرور الأنانية وحب النفس ولسوف يتخطاها مهما كانت نتائجها وخيمة ، ووسايلها تتعارض مع مقتضيات الشرف والفضيلة .

وكثيرا ما أدت غريزة حب النفس إلى ارتكاب أعظم الجرائم الأخلاقية كذلك إلى القتل والمردة .

وغريزة القتل كما نعرف جميعا من أخطر الغرائز الإجرامية المحدودة الضرر ، وأصحابها يتشابهون كثيرا مع أصحاب غريزة الهدم ولكنهم يفوقونهم في نقص الوازع الدينى .

فهم إما يقتلون لحب صفك الدماء تحت تأثير أمراض عصبية ، وإما تبعا للبيئة التى تحيط بهم ، ومن هؤلاء أهالى الصعيد الذين يتساهلون فى ارتكاب تلك الجريمة وكأنها شئ عادى لديهم يشيره أبسط الأشياء وأنفها . وكمن جرائم قتل ترتكب هناك باسم الأخذ بالثأر ومردة كوز من الذرة أو حفنة من القمح .

أما روح الهدم فهى غريزة متفشية عندنا بين الكبار والصغار وترجع مسباتها أيضا إلى الأمراض العصبية ، كذلك إلى البيئة والوسط كما ترجع إلى بعض العقائد التى يعتقدها بعض المفكرين من أن الهدم وسيلة من وسائل البحث من الحقيقة وأشهر هؤلاء "بول بورجيه" وأفكاره فى ذلك مجسمة فى روايته "التلميذ" .

وغريزة الهدم من الغرائز الخطرة المؤذية ، فصاحبها ميال دائما إلى هدم ما يراه قويا ، وتشويه ما يراه جميلا . وليس أدل على ذلك من محاربة بعض الناس دائما لصغار الأدباء والشعراء الذين يتجراون يوما على إظهار بعض ثمرات قرائحهم التى غالبا ما تكون ناجحة طيبة ، ومع ذلك يأتى هؤلاء إلا تشويهها وتحطيمها ، فتنشط الأقلام وتكاتف ضد تلك القرائح الفتيه حتى تثبط همهم وتميت عزائمهم .

وهؤلاء يتساوون فى نظرى مع من تراه جالسا فى السيارات العامة ويده مشرط أو مطواة يمزق بها أغشية المقاعد ، أو أولئك الأطفال الذين يلقون الأحجار فى أوقات لعبهم على نوافذ الدور الآمنة ليحطموا زجاجها .

والأمثلة على غريزة الهدم كثيرة وأصحابها يتساوون فى طباعهم سواء فى ذلك الرجال والأطفال والنساء .

وهاكم دليلا ملموسا يؤيد وجود هذه الغريزة فى النساء أيضا ، فقد زارنا من مشهور بعض الزوار يذنبن أنسة تبدو عليها العصبية وحدة الطبع ، ظلت طيلة مدة جلوسها تنبش

في أحد مقاعد الصالون بأظافرها الطويلة حتى أحدثت فيه تشويها ظاهرا، وكنت ألاحظها مغيزة متعجبة ومع ذلك لم أملك أن أمنعها أو أنهرها إكراما لواجب الضيافة ومراعاة لشعورها ولنا كدى من عدم إدراكها ما تفعل وهي متقادة لفريزة الخدم التي تسيطر على أعصابها .



ونخرج من هذا البحث بنتيجة ظاهرة وهي أن لفساد التربية وانحطاط البيئة أعظم الأثر إما في إنماء غريزة الشر وإما في تكوينها .

فلو اتبعت كل أم الطرق الصالحة في تربية أولادها وهيأت لهم بيئة حسنة لما احتاج الأمر منا إلى كثير عناء في القضاء على غرائز الشر والتحرر منها .

وأول ما يجب عليها أن تفعله في هذا الأمر هو تنقية الوسط الذي يحيط بطفلها من كل ما يلوث نفسه الصغيرة من أدران الحياة، وذلك بعزله في غرفة بعيدة على قدر المستطاع عن كل ما يدور في محيط الأسرة من أشياء ربما كان الأفضل له ألا تنفذ إليه ، فإذا توافر له ذلك ظلت هناك عقبة تكوينه وتربيته ، فكثير من الأمهات يعتمدن في تربية أولادهن على الخدم والمربيات ، ومع ذلك فقد ظهر عظم تلك الطريقة واضحا لكثير من الأسباب ، منها عدم اختيار المرأة الصالحة للقيام بتلك المهمة العظيمة ، كذلك عدم إشراف الأم بذاتها على سير تلك المهمة ، فتكون النتيجة أن يتمود الطفل على أخلاق خادمتة أو مربيته ، ويتشبع بسوء غرائزها ، فتفشل كل الاتيادات التي أردنا بها أن نهذب غرائز الشر فيه ، إذا كانت وراثية ، أو القضاء عليها إن كانت عارضة .

وأرى في ذلك أن تتولى الأم بنفسها القيام بتربية طفلها . وليس هناك أي عار لها إذا فعلت ذلك ، بل العار كل العار أن تنجب ولدا لا تعرف كيف تكون له أما ، وأن تطالبه بعد ذلك بحبها ، وتجبره على احترامها ، وهي التي حرمت من أبسط واجبات الأمومة وأنفت أن تغمره بالقليل من رحمتها .

فإذا تم لها تخصيص غرفة له والعمل على تنقية البيئة التي تحيطه ، تكون قد قامت نخوة بالخطوة الأولى من واجباتها ، وفي مقالى الماضى " الأسرة السعيدة " كثير من العوامل التي تساعد على نجاح تلك الخطوة وأهم تلك العوامل وجود الهدوء المنزلى في محيط الأسرة ، ووجود الذوق الفنى .

وبعد ذلك تضع الأم كل اهتمامها في درس مدى استعداد طفلها لتفهم الأشياء ، وتقف على ميوله فتتخذ منها مقياسا للطريقة المثلى في تربيته وتكوينه . فتبدأ في تنمية ميوله الفاضلة ، وتهذيب ميوله الشريرة بالعقل والحكمة حتى يبدأ في تفهم الأشياء .

و يمدتد تبت في نفسه العقائد الدينية الفاضلة ، وتملا قلبه الصغير بالإيمان حتى يتسنى لها توجيهه كفيها شاءت ، ثم تدأب على تربية عواطف الخير في نفسه ، ويكون ذلك بسرد القصص المشوقة الطريفة . إلى تحبيه في عمل الخير والبر بالفقير والمطف عليه ، والصبر والخلد والتسامح واحترام مصالح الغير ، ثم تدوده الطاعة مع الاحتفاظ بالكرامة ، والاقدام مع الشهامه والشرف ، وضبط النفس في الملمات ، وتصحية الذات في سبيل مصلحة المجموع حتى إذا ما أوشك على السابعة اشتركت المدرسة معها في إتمام تكوينه ورسم مستقبله .

وبهذه المودة المشتركة يشب الطفل عفيفا أبى النفس مطواعا فيسهل توجيهه دائما إلى طرق الخير والانسانية بعد أن كبحت في نفسه غرائز الشر وتحرر من أغرائها .

هذه هي مرحلة الطفولة ولها على ما عرف كل الأثر في تربية الشعور وتوجيه الفرد في الحياة ، فحسى أن تنشط كل الأمهات للاهتمام بتلك المرحلة كي يتحقق لنا أن نرى ذلك الجيل الجديد الذي نهو لرويته ، جيل الانسان السامى المنزه عن كل ما يشين .

أما من تخطوا مرحلة الطفولة بعيدا عن أيدى المربين والرقباء ، فهناك وسيلتان اتبعتهما الأمم الراقية للحد من شرورهم وتهذيب غرائزهم .

فالدول الأوروبية قد توصلت إلى علاج هؤلاء باستئصال الغدة الادريينالية ، أما في أمريكا فقد اهتموا بإنشاء المعاهد التي يشرف عليها نخبة من أطباء النفس والجسد ، يدرسون حالة المجرمين من الصبيان الذين ينقطونهم من الشوارع ، ثم يعملون بشتى الطرق النفسانية والجماعية على تحريرهم من شر غرائزهم ، وتوجيههم إلى الوجهة الصالحة في طريق الخير .

وقد كان ضمن الأفلام الأمريكية التي عرضت في مصر فيلم اسمه (رجال مدينة الأطفال) أظهر بوضوح جهود تلك المعاهد في سبيل تأدية رسالتها السامية ، وكيف تخلق من هؤلاء المجرمين المرضى بفرائز الشر والاجرام ، رجالا مهذبين يساهمون في العمل على مجد وطنهم وإعلاء شأنه ، بدلا من أن يكونوا أبالسة الشر وشياطين الاجرام .

فيأحبذا لو فكرنا نحن أيضا في اتباع مثل هذه الطرق العلمية والعملية حتى يمكننا أن نوقف ما استطعنا ضرر هذا الانحدار الخلقي ، فنقضى على الجريمة ونحرر ونحرر معنا المجتمع من شر غرائزنا .

زينب محمد حسين